8ـ المدرسة السياقية

(فيرث J.R Firth)

8- المدرسة السياقية (فيرث J.R Firth)[1]:

تمهيد :

إن تعدد المفاهيم التي قد تدل عليها الكلمة الواحدة يكشف أمرا مفاده أنّ لهذه الكلمة معنى قارًّا ومركزيا هو "النواة"، ومعان أخرى هامشية وثانوية اكتسبها بفعل دورانها المتجدد في أنساق كلامية متباينة جعلت من المعنى المركزي دائرًا في فلك المعاني الثانوية التي لا تفاضل بينهما، وبات من الضرورة بمكان الاستناد على معيار أو سبيل لتفسير تحولها وتغييرها ومن ثم رفع اللبس الذي قد يعتورها في ظل تعدد مقاماتها وتموقعاتها في سلسلة الكلام[2]، ولعلّ هذا الشاغل هو الذي أوعز بالسياقيين – قديمهم وحديثهم[3]- إلى فكرة السياق ونظريته التي تطورت حتى باتت مدرسة تأسّست مبادؤها على الموضوعية اللّسانية في مقاربة الدلالة، ذلك أنها ترتكز على نموذج فعلي لتحديد دلالة الأبنية اللغوية[4]، يقول ستيفن أولمان: "السياق وحده هو الذي يوضح لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعي صرف، أو أنها قصد بها أساساً؛ التعبير عن

---

[1]- يعد فيرث (**J. R. Firth 1890- 1960**) أول من جعل اللسانيات علماً معترفا به في بريطانيا، عمل أستاذا في البينجاب سنة 1919، وبعد عودته إلى بريطانيا شغل منصبا في قسم الصوتيات في الجامعة، وكان أول أستاذ في اللسانيات العامة ببريطانيا سنة 1944.

[2]- ينظر: منقور عبد الجليل : علم الدلالة – أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص93.

[3]- نقصد بذلك أنّ فكرة السياق لم تأت من عدم وسابق عناية، ولا أدلّ على ذلك من اهتمام البلاغيين العرب بها في ظل المبدأ القائل: لكلّ مقام مقال، ولكلّ مقتضى حال، ولاسيما في إطار خاصية المشترك اللفظي في لغتنا العربية.

[4]- يفّرق فيرث بين البنية والنظام، فالبنية تدّل على كلّ العلاقات الموجودة على مستوى المحور الركني؛ أي الترتيب الأفقي لمختلف العناصر المناسبة، أّما النّظام فيدّل على كلّ العلاقات الموجودة على مستوى المحور الاستبدالي بين مختلف العناصر؛ فحسبه كل كلمة هي عبارة عن بنية متميّزة، تتشكل من وحدات مختلفة صائتة وصامتة. ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص180.

العواطف والانفعالات"[1].

تعدّ نظرية السياق من أهم نظريات الدلالة عند الأوروبيين، ورائدها فيرث في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وقد انصب اهتمامه في دراسة اللغة على علمي الأصوات والدلالة، وهي عادة العلماء الإنجليز منذ هنري سويت *H.Sweet* ودانيال جونز.*D.Jones* في القرن التاسع عشر، وقد مثلت هذه النظرية تحدًّيا مباشًرا لأفكار بلومفيلد في تلك الآونة، و قام هاليداي *Halliday* بتطوير أفكار فيرث لاحًقا، وضمنها أبعادًا جديدة بحيث لم تعد قاصرة على مستوى الجملة بل تجاوزتها إلى ما هو أكبر أي النص[2] حيث طوّر نظريته لسياق الحال، والتي على أساسها ترجع معاني الكلمات إلى وظائفها المختلفة، وبذلك استطاع **فـيرث** أن يبين أن الوصف اللغوي يتحدد تبعا للمعنى.

1- مفهوم السياق *Context*:

لا يمكن إعطاء جواب بسيط على السؤال: ما هو السياق؟؛ وذلك لأنّه مصطلح نراه يتغلغل في مجالات معرفية كثيرة أهمها اللسانيات وعلم الدلالة والبلاغة وعلم الأصول والنقد الأدبي وغيرها من المجالات.

يستعمل لفظ (السياق) ترجمة للمصطلح الانجليزي (context) "الذي يطلق ويقصد به المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية سواء أكانت كلمة أو جملة في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية، ويعرف هاليداي السياق بقوله: هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية، وتعرفه بروس أنغام بقولها: السياق يعني واحدا من اثنين: أولا: السياق اللغوي وهو ما يسبق الكلمة، وما يليها من كلمات أخرى، وثانيا: السياق غير اللغوي: أي الظروف الخارجية عن اللغة التي يرد فيها الكلام.وهذا التمييز بين السياق اللغوي

[1]- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، تر: محمد كمال بشير، مكتبة الشباب،(د ط)، 1988، ص 63.

[2]- ينظر: محمد محمد علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2004 ، ص 78-81.

والسياق غير اللغوي هو ما اكسبته نظرية فيرث أو النظرية السياقية للدرس اللغوي حين أصبح تناول المعنى يعني تناولا لهذين الجانبين".[1]

ومفهوم السياق عند أصحاب هذه النظرية هو (استعمالها في اللغة)، أو (الطريقة التي تستعمل بها)، أو (الدور الذي تؤدية)[2].ولهذا يصرح السياقيّون بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية؛ أي وضعها في سياقات مختلفة، ولاسيّما اللغوية منها، ولذلك نفوا أن يكون الطريق إلى معنى الكلمة هو رؤية المشار إليه أو وصفه أو تعريفه. وتتبدّى فكرة السياق- في رأيهم- في تجاور معظم الوحدات الدلالية مع أخرى، وأنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى المجاورة لها، فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلا موضوعياً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي." ففي كلّ سياق تكتسب الكلمة معنى مُحدّداً مُؤقتاً يُمثّل القيمة الحضوريّة لها، التي تختلف من سياقٍ إلى آخر"[3]، لذا فإنّ المعاني السياقيّة للكلمة الواحدة تتعدّدُ تبعاً لتعدّدِ السياقات التي تَرِدُ فيها، أو بعبارة أخرى تبعا لتوزيعها اللغوي *Linguistic Distribution*، ويمكن أن نمثّل لتطبيق هذه النظرية بالفعل (**أكل**) في السياقات القرآنية الآتية:

يقول عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: 07]؛ بمعنى التغذية للإنسان.

---

[1]- ردّة الله ابن ردّة بن ضيف الله الطلحي: دلالة السياق (أطروحة دكتوراه في علم اللغة)، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، السعودية، مج 1، 1418، ص 40.

[2]- سالم سليمان الخماش، المعجم وعلم الدلالة (للطلاب المنتظمين والمنتسبين)، مكتبة الكتاب العربي، 2007، ط1، ص 63. ينظر: مكتبة لسان العرب على الرابط:
https://ia801600.us.archive.org/35/items/lis00316/book1_1586.pdf

[3]- فندريس، اللغة ، ترجمة : عبد الحميد الدواخلي و محمد القصاص ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ط3 ،1967، ص 231، 232.

وقوله تعالى:﴿" وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [سورة يوسف، الآية: 13]؛ بمعنى **الافتراس** للحيوان. وقوله تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ [سورة هود، الآية: 64]؛ بمعنى **الرعي** للحيوان.

وقوله تعالى:﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [سورة الحجرات، الآية: 12]؛ بمعنى **الغيبة**.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [سورة النساء، الآية: 10] "؛ بمعنى **الاختلاس**.

وكذا قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾[سورة آل عمران، الآية: 183]؛ بمعنى **الاحتراق** للجماد.

فالسياق إذن هو" إطار عامّ تنتظم فيه عناصر النّصّ ووحداته اللّغويّة، ومقياس تتّصل بوَساطَتِه الجُمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداوليّة ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النّصّ للقارئ، ويضبط السّياقُ حركاتِ الإحالة بين عناصر النّصّ ، فلا يُفهَم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلِها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السّياق"[1].

2- الإطار المنهجي لنظرية السياق عند فيرث:

يعود الفضل في تأصيل نظرية السياق إلى فيرث من خلال وضعه للإطار المنهجي لتحليل المعنى معتمدًا على أربعة عوامل، وبيانها كالآتي[2]:

1- تحليل السياق اللّغوي صوتيًا وصرفيًا ونحويًا ومعجميًا.

2- بيان شخصية المتكلم والمخاطب والظروف المحيطة بالكلام.

3- بيان نوع الوظيفة الكلامية: مدح، هجاء، طلب،... الخ.

4- بيان الأثر الذي يتركه الكلام كالإقناع أو التصديق أو التكذيب أو الفرح أو الألم... فاستعمال الكلمة -في رأي هؤلاء اللسانيين- يحكمُه أمران: السياق اللغوي، الذي لا ينظر إلى الكلمات كوحدات منعزلة؛ (لأن الكلمة يتجدد معناها بعلاقتها مع الكلمات

[1]- عبد الرحمن بودرع: منهج السياق في فهم النص، مكتبة الثقافة ، الدار البيضاء ، 2008، ص43 .

[2]- ينظر: سامي عياد حنا وآخرون: معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1997، ص29.

الأخرى، ولا يمكن أن تتضح الدلالات الدقيقة لها إلا عندما نضعها في سياقات مختلفة) وسياق الموقف الذي يتكون من ثلاثة عناصر وهي: (شخصية المتكلم والسامع والعوامل الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالحدث اللغوي ثم الأثر الناتج من ذلك الحدث اللغوي)[1].

وفي معرض حديثه عن المعنى يرى أنّ المدارس اللغوية الأخرى اعتنت بالتركيب الداخلي للغة أكثر ممّا يجب، وأغفلت استعمالها الفعلي في المجتمع رغم علاقتها بالجانب الأول، كما يزعم فيرث أنّ نقل الفكرة من المتكلّم إلى السامع لا يتمّ بمعزل عن مقتضى- *Context de situation*، ومن ثمّ فإنّ استعمال اللغة محكوم بمبادئ أساسية هي[2]:

1- السياق: (والمقصود به الكلمات التي تحيط بالكلمة المراد توضيح معناها)، فالكلمة لا يتعيّن معناها الدقيق دون السياق الذي يعيد إحياءها على صورة نظرية علمية، فعلى سبيل التمثيل يتلون معنى الفعل" طلى" باعتبار السياقات الآتية:

أ- طلى الجدار بالدهان = دهنه.

ب- طلى الليل الأفق = غشاه بظلمته.

ج- طلى فلاناً = شتمه. د- طلى الفرسَ = ربطه وحبسه...

2- **المقام أو المناسبة**: ويضمّ عناصر أهمها:

المتكلم (المخاطب): نوعه وسنّه ومكانته وجنسه ودينه وعلاقته بالمستمع.

المستمع وما يتبعه، وعلاقته بالمستمع (صديق، قريب، غريب، عدو...).

الخلاصة: مجموع العلاقات والخصائص اللغوية التي يكشف عنها الموقف الكلامي المحدّد في سياق، لغوياً كان (علاقات صوتية، صرفية، نحوية...)، أو سياق حال (الظروف الاجتماعية والبيئة الثقافية للمتكلّمين).

3- **الموضوع**: من حيث: عناصره ومكانه وزمانه، ودواعي إنتاجه.

---

[1]- سامي عياد حنا وآخرون: معجم اللسانيات الحديثة، ص28، 29.

[2]- ينظر: أحمد عبد العزيز دراج: الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية، مكتبة الرشد ناشرون، 2003، ص96-98.

إذن فموضوع نظرية السياق عند فيرث هو السلوك البشري في سياق اجتماعي وثقافي مخصوص ومعّين؛ أي مراعاة ظروف الحدث الكلامي ممثّلة فيما يأتي:[1]

أ- شخصية المشاركين في عملية الكلام (المتكلّم السامع) وتكوينهما الثقافي وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلّم والسامع.

ب- العوامل المتعلّقة بالحدث الكلامي (اجتماعية ثقافية)، كحالة الجّو إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي، وكمكان الكلام.

ج- الأثر الذي يحدثه الكلام (كالرضى والسخط، أو الاقتناع أو الألم، أو الضحك.

وتظهر أهمية السياق في الاعتناء بالجانب الاجتماعي للمعنى (أو سياق الحال أو المقام)، فالمستوى اللغوي يقتصر على الكشف عن المعنى المقالي (الحرفي)، منعزلاً عن المحتوى الاجتماعي والثقافي حسب ما تؤديه القرائن؛ أي أنّ المعنى الدلالي يتَأَتَّى من السياقين معاً، فعبارةٌ متداولةٌ نحو: (أهلاً وسهلاً) تقال عادة للترحيب، وقد تدل في موقف آخر على التوبيخ والتهكّم، كأن يقولها (مدير) بطريقة معينة لبعض موظفيه المتأخرين عن موعد العمل، فعند عزل النص عن سياقه أو تغييب بعض عناصره يصعب فهمه. ومن هنا يتحدد مفهوم (فيرث) للمعنى على أنه علاقة بين العناصر اللغوية والسياق الاجتماعي، بحيث تتحدد معاني تلك العناصر وفقا لاستعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة. وبناء على هذا الفهم يقسم السياقيون السياق إلى:

1_**السياق اللغوي**[2] *linguistique context* :

وهو السياق الذي يعتمد في تحديد المعنى على عناصر لغوية، ومثال ذلك كلمة (ضرب) فإنها تعطي معاني مختلفة في سياقات لغوية متباينة، ومثال ذلك قولنا: ضرب زيد عمرا بمعنى عاقبه، وضرب الله مثلا بمعنى ذكره على سبيل التمثيل، وضرب له قبة بمعنى أقام، وضرب النقود أي صاغها، وضرب في الأرض أي سعى، وضرب له موعدا أيّ حدّده وما

[1] - *J.R .Firth , Papers in linguistics, Oxford university press, London edition5, p: 182*

[2] - السياق اللغوي هو الإطار الداخلي للغة، ويقصد به النصّ الذي تذكر فيه الكلمة، وما يشتمل عليه من عناصر لغوية مختلفة تفيد في الكشف عن المعنى الوظيفي لهذه الكلمة.

شابه ذلك. ويلاحظ أن مفهوم اللغة لدى هذه النظرية قد حال إلى مجموعة من الدلالات والعلاقات المرتبطة بسياق خطابي ما، مما يعني أنها تنظر إلى اللغة كمعنى يدل على وظيفة في سياق مخصص، وهو ما يعد تحولاً في الفكرة السائدة عن المعنى بأنه علاقة بين اللفظ وما يحيل إليه في الخارج أو الذهن من حقائق وأحداث[1].

2_**السياق العاطفي** *emotional context* :

وهو السياق يحدد الذي درجة القوة والضعف مما تزيد تأكيدا أو مبالغة أو اعتدالا فكلمة *love* في الانجليزية غير كلمة *like* على الرغم من اشتراكهما في أصل المعنى وهو الحب، وكلمة (يكره) في العربية غير كلمة (يبغض) رغم اشتراكهما في أصل المعنى.

3_ **سياق الموقف (الحال)** *Context of Situation*:

وهو السياق الذي تقع الكلمة فيه في الموقف الخارجي، ويظهر ذلك في العبارات المصطلحية في الظروف الاجتماعية المعينة مثل: تبادل التحية والتعزية في حالات الوفاة، والنداء بالألقاب، فهذه العبارات لا يمكن فصلها عن ظروفها الاجتماعية التي أتت فيها. وقد عرف اللغويون العرب هذا النوع من السياق وسموه بالمقام وأشاروا إلى ذلك بقولهم لكل مقام مقال، "إذ يرى فيرث أن الوقت قد حان للتخلي عن البحث في المعنى بوصفه عمليات ذهنية كامنة، والنظر إليه على أنّه مركب من العلاقات السياقية، وذهب إلى أنّ الوظيفة الدلالية لا تتأتّى إلاّ بعد أن تتجسّد القولة في موقف فعلي معين؛ أي بعد أن تخرج من خانة الوجود الوضعي الكامن إلى حيّز الوجود الاستعمالي الفعلي، وهو أمر لا يتحقّق – حسب رأيه- إلّا في سياق الموقف *Context of Situation* "[2].

وعليه لا يمكن لنا عزل عملية الكلام عن المحيط الخارجي للغة، إذ يعتمد إفهام السامع على عملية التواصل بين المتكلم والمتلقي، فما ترسّب في ذهن كليهما من خبرة مشتركة حول معاني المفردات المستعملة يرشد إلى المعنى الكليّ للجملة، فسياق الحال يهتم بدراسة المحيط الذي يقع فيه الكلام ويشمل (الظروف المحيطة بالحدث الكلامي لسياق

[1]- ينظر: محمد محمد علي، مدخل إلى اللسانيات، ص 78.

[2]- المرجع نفسه، ص79.

الموقف، ونوع القول وصفته، واللسان المشترك أو اللهجة المستعملة، والمتكلم أو الكاتب، والمستمع أو القارئ، والعلاقة بين المرسل والمتلقي من حيث الثقافة والجنس والعمر والطبقة الاجتماعية، فضلا عن بعض الإيماءات أو أيّ إشارات عضوية[1].

4_**السياق الثقافي** *cultural context* :

يقتضي السياق الثقافي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة وهي القيم الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالكلمة، إذ تأخذ ضمنه دلالة معينة، وقد أشار علماء اللغة إلى ضرورة وجود هذه المرجعية الثقافية عند أصحاب لسان بعينه (عربية، فرنسية، إنجليزية...) لكي يتم التواصل والإبلاغ، إذّ تخضع القيم الثقافية للطابع الخصوصي الذي يلون كل نظام لساني بسمة ثقافية معينة وهو ما يكون أحد العوائق الموضوعية في تعلم اللغات[2]، فكل لغة فيها ألفاظ وعبارات يمتنع ترجمتها إلى غيرها من اللغات لأنها تمثل خصوصية لمجتمع معين، ولأنها ترتبط به في كل نواحي الحياة المادية والمعنوية والثقافية.

ومجمل القول: " إن تسييق الصيغة اللغوية يعد المنفذ المهم لتحديد مجالها الدلالي، فلا يمكن أن ترد الصيغة اللغوية بمعزل عن السياق النفسي أو الاجتماعي الثقافي، بل يحصل التجاور بين مجموع الصيغ اللغوية داخل التركيب وهو ما يمكن التعبير عنه بمصطلح "النظم"، كما سماه قديماً عبد القاهر الجرجاني في كتابه: "دلائل الإعجاز"، وقد اعتبر فيرث أنّ قائمة الكلمات المتراصفة[3] مع كل كلمة تعد جزءاً من معناها، بحيث يستدعي حضور كلمة ما حضور سلسلة من الكلمات التي تتراصف معها سياقياً وتتوافق معها في الوقوع"[4].

---

[1]- ينظر: محمود السعران : علم اللغة ؛ مقدمة للقارئ العربي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 2006، ص339.

[2]- ينظر: ، منقور عبد الجليل : علم الدلالة – أصوله ومباحثه في التراث العربي، ص95.

[3]- الرصف *Collocation* هو الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة، كارتباط الظلمة بالليل، وارتباط اللبن بالبقرة وما إلى ذلك.

[4]- منقور عبد الجليل : علم الدلالة – أصوله ومباحثه في التراث العربي، ص96.